

مصر بين حضارتين

بتلم الأستاذ محمد لطفي جمعة المحامى

لا بد لكل إنسان من الأخذ بنصيب من الدين والعلم والمال والتنازل عن نصيب من حقوقه وحرية والتضحية بكثير من عواطفه ومبادئه ورأيه ليتمكن من العيش في المجتمع البشرى في حالته الحاضرة .

وقد كان المؤمل المرجو أن يزداد نصيبه من الفريق الأول ويقل عنه عبؤه من النصيب الثانى ، ولكن استقراء التاريخ دلنا على أن الأمر على النقيض في الناحيتين . ويرجع سبب هذا الخلاف بين ما كان مأمولاً ومرجواً وبين الذى وقع فعلا في قدر كبير الى أحكام الطبيعة الكونية أولاً ، وإلى طبيعة التكوين الإنسانى ثانياً .

أما الدين فهو مؤسس على الغيب والمستور وعلى مجرد الثقة فيما يؤكد أفراد ممازرون من الجنس البشرى . وقد قامت شبهات وأشباه أدلة على الشك عند معظم الناس ولا سيما الجهلاء والمعاندون وذوو الطبائع المتناقضة ، فانهار الركن الأكبر للأديان الواحد تلو الآخر في صمائر المتدينين وغفلت الكثرة عن حقيقة راحته وإن كانت حفية ، وهى أن الدين لا يكون إلا لأفراد قليلين محدودى العدد متسعى الإدراك في كل الأمم وكل العصور وتكاد مواهبهم تكون متجهة نحو البحث فيها وراء الطبيعة . فالأسباب التى تدعوهم إلى التدين لاصقة بعقولهم لا بمافعهم .

وقد نشتت الأيام في العصور المتوالية منذ أقدم الدهور أن الإنسان بالغاً ما بلغ من صفاء النفس وحسن الطوية ، لا يستطيع أن يجهد عن الشر ، إذ دعت إليه دواعيه إلا بوارع من الدين سواء أكان على دين سماوى أم كان من عبدة الأوهام أو الأصنام ، لأن العقيدة الدينية تقوم في النفس مقام الشرطى الحارس الذى يمنع ما حرمته الشريعة التى تتعلق بها تلك العقيدة والشرائع كلها خير وما الشر الذى ينشأ عنها إلا من التحريف والتأويل .

أما والأديان خير محض ، وإن كانت وثنية ، فإن الأديان السباوية جاءت لسعادة الناس لكنها لا تنجى بالسعادة إلا إذا كانت خالصة لوجه الله ، وهى لا تكون خالصة لوجه الله إذا ضعفت العقيدة بما يشوبها من المؤثرات الدنيوية التى تصرف المؤمن عن العبادة أو تجعل العبادة مقترنة بالمشاغل التى تحول القلوب عما يتطلبه الإيمان من التجرد من الأغراض والشهوات .

وأما العلم فلم يهتد الدرس عدد ، إلى الطرائق المثلى في تلقينه ونشره وحسن الانتفاع به ولم يجمع الأئمة في قارة واحدة ولا الجماعات في أمة واحدة على طريقة مفردة بل اتبع كل فريق منهم مسعى يخالف مسعى حيرانه . فمنها ما قام على الاستظهار ، ومنها ما قام على العقل وتقوية الذكاء قيام الأولين على تقوية الذكاء ، واختص منها جنس بمرانة الأجسام وتضخيم الأبدان وجس بالانكباب على الدرس وهكذا إلى أن أصبحت عقول الصغار والفتيان ملاحق معامل تجريبية وصار العبء كله على كاهل أولياء الأمور في الطور الأول ، ثم على كاهل الطلاب أنفسهم يتبعون ميولهم ومواهبهم ويكادون بقدر ما أتمتوا .

أما المال فهو المشكلة الكبرى ولا سيما في العصور الأخيرة ، فإنه في أثناء انهيار الأديان تفتحت أذهان البشرية إلى المبادئ المادية التي سبقها التكالب على الشهوات والتطرف في الاحتياز واستقواء غريزة الملكية ، وتراخت أواصر الأخلاق وانحلت روابط المعاني والأرواح بقدر ما انسجمت علائق المظاهر والأشباح .

وكانت نزوحات القبائل الرحالة واللمح والجياع من ربوس الجبال والوديان المجذبة إلى سهول الخصيبة وضفاف الأنهار أول خطوة في تحويل التيارات الإنسانية من القناعة والسلم والعمل الفادى إلى الدفاع ثم الهجوم والتطاحن والاستهانة بإهراق الدماء ، وما زالت لمخالف نمو والنصبة تدوى وتتصالح حتى أصبح الحق للقوة والحيلة ، وامتدت هذه الأمراض الخفية حتى صارت الكلمة العليا ، لا شرار والخبثاء والمترصين للهجوم والإيقاع .

وبعد أن كان المتهمون يخشون عواقب النقد والتأنيب أصبح المدافعون هم الخشاة الجدد ، ولكنهم شعروا بحسرتهم إلى تحقيق خطة أخرى تدعم القوة المادية وتسندها وتمترها فاستشرى الكذب وأدلى النفاق برؤوس ثلاث : نفاق اجتماعي ، وآختر سياسي ، وثالث اقتصادي ، وهو ما كان في أول الأمر مقصوراً على النفاق الديني "التقية" وغاوض أوداء وفاض النذر وانفجرت مسافة الخلف بين القول والعمل ، وصار أصحاب المكائد في مقدمة العائرين في معركة أمضى أسحتها الكذب والاستهتار والأنانية والتحلل من كل قيد واتخذ "الدحاح" صورة حديثة ومدنولا غميبا وهو التولسل بكل حيلة للحصول على أعظم كمية من المال الثابت والمفقود . وبعد ذلك لا يسأل المالك من أين ملك ! ويصبح قوة من قوى الدولة له سائر حقوق العسب بالتعاون وليس عليه واجب محدود ، ثم توجهت نية الملاك إلى تحلص من أعباء لعنات كرها لا يرتاطهم بالأرض أوجهم في التنقل ومحو الحدود التي تحد من رغبتهم و اختيار الإقامة بين تروقهم ما داموا يعيشون بدون أدنى مجهود ، وكانت هذه الرغبة دليلاً على انقسام الأئمة إلى فريقين ، فريق يكذب ويكدرح ويواصل العمل في الليل والنهار رجاء أن يجوز لقوت الضرورى وهو الكثرة الطاحنة ، وفريق يلهو ويلعب ويصيد

ويغزو ويستمتع ويمرح وينثر المال وينفقه فلما لم يجعل له وجه القلة المطلقة ، وبعبارة أخرى تجدد الرق برذائله وزالت نعمه التي كانت قرينة له في العصور الأولى ومجيت آية تحرير العبيد ، نسختها آية استعباد الأحرار .

وصار التناسل في الطبقات الفقيرة وسيلة لضاعفة عدد الأرقاء وتحكمت حاجة الرجل والمرأة إلى إكفاء مطالب الجسد في مقدراتهما وإنما يعلمان أنهما إذا لم يلدن ليزدادا ذلًا وليوردا سجل الشقاء ذكورا وإناثا كان أنفع لهم وأجدي ألا يولدوا فإنه بنسبة ارتقاء حاجات العصور وتصاعد التفتحات واضطرار الفقراء لترك دمائهم في سبيل ضرورات إنسانهم . كان انحطاط تقديريهم في أعين سادتهم الذين يلدون سادة للمواليد الفقراء الذين يرتنون الشقاء عن والديهم .

ثم تولدت الصناعات الرفيعة وهي حليقة الحسرم في الشعوب فافتن الصناع في ابتكار الكماليات التي تخلق العادات الخاصة والعامة ، واخترعت أدوات لمحق الزمان والمكان حتى وصف العصر بأنه "عصر السرعة" وامتنتب المنصريات والبروجيات في سبيل رفاهية الابدان وعنتت المرأة من جديد عروش الجمال والنسنة فتحكمت واحتكمت اليها الرجال وسودوها فسودت صحائفهم وعبتت بالتاريخ ووضعت مغرفة الشهوات في "قدور" السياسة والمال وصارت لها الكلمة العليا ولأهوائها التول الفصل ولشهواتها المكبوتة والطنيقة الأمر المطاع .

وفي انشاء ذلك انفصمت عرا الأخلاق وطغت الغرر على القوس وأفلتت حبال الاعتصام من أيدي التقاضين على زمامها وامتد التتكت إلى نظم الدولة واهترت دعائم الساطة وصار أحق الناس بالمحافظة على السطة أكثرهم تهاون فيها واستهانة بها وضعف حرصهم عليها ولما كانت القدوة والتقليد سواء أكاة في الحسنى أم في السوءى من أقوى دوافع الإنسان لا تحاذ الخلط وترسم الطرق . اتخذت التيارات سبل الشر فلما صار الخارس لصبا والمؤمن خوانا والصديق كاذبا والجدير بالاحسان ملبسا سرت لردائل في الطباع سريان النار في الحطب والخمر في أوصال التمل ، حتى صار إتباع يستبقون المتبوعين . وأسمى المقلدون أحرص من المقلدين على اتهاج مناخهم وامتقاء آثارهم والمشي على سننهم . وما يزال فريق من البسطاء ومحسنى الفن بالفطرة البشرية يؤملون صلاحية الأمور ويمنون انفسهم بتقويم اعوجاج الانسانية ويمملون العذبة الربانية كقضية بتحقيق أمانتهم وهم يعلمون أن المرجو صلاحهم قد خالفوا كل الشرائط وحادوا عن سنن الخير والعدل والحق كافة وأن تدخل العناية لألوية لا يكون ولا يتحقق إلا اذا توافرت عناصر معينة منصوص عليها وقد تضاءلت تلك العناصر على مدى الأجيال حتى تلاشت .

وكان من أظهر المظاهر اندثار العدل وتضياع الحقوق وتضخم نكران الجميل حتى كاد يكون معتقدا عند المحسن والمحسن إليه فتولدت الأحقاد واستفحلت الاضغان بين الافراد والجماعات والطبقات والأمم حتى أصبحت تتفاضل وتباهى وتبهي وتبهي على من عداها. فكان يقال أمة الرومان سيده الأمم في الغرب ، وأمة الفرس كبرها في الشرق ، وافتخر العرب على سواهم وكذلك وصف المصريون الأقدمون كل الاجانب بأنهم بارة. والحقيقة أن الاغريق واليونان والعرب والمصريين والرومان لم تحتفظ باصولها ولم تبق على شيء مما كانت عليه بل طرأت عليها حوادث أليبتها في نظر الرقياء لمدققين ثيابا غير ثيابها كالفتوح والغزوات وتقببات العقائد وتطورات الحضارة وغيرها من الحوادث الجسام التي تتخلل أعمار الجنس البشري فإن الفرنسيين لاثنين ، أي رومان بلغتهم ، وأغريق بالمدينة ، ويهود في الدين ، والمصريون حاميون جنس وساميون لغة ، ومسلمون دينا . وهكذا قل عن كل الأمم حتى الحديثة العهد منها كالمستوطنة قارة أمريكا . فلم يصبح لامتياز الشعب بالارومة والأصل والنسب (مع أهميته الكبيرة في الموقوب على منشته) ما كان له من الشأن قديما وصارت حوادث الكبرى الطارئة في المقام الأول من الاعتبار . ومن تلك الحوادث حضارة ليونان وفتوح الرومان وغزوات الجرمان وظهور الإسلام والنصرانية وإحياء العلوم وعصور الفلسفة والثورة الفرنسية واكتشاف أمريكا والاختراعات الكبرى والشيوعية فإن هذه الحوادث الكبرى مرت وما زالت تمر على العالم وعلى الجنس البشري كأدوات الطحن والطرس نحو ذات الامتياز الجنسي وترغم الأسر البشرية على الامتراج والتجانس لتجمعها أمة واحدة .

لقد نجحت الانسانية في إيجاد حلول لخصومات الفردية وإن لم يكن العدل القضائي الذي تجر به الحاكم هو العدل المطلق بل هو مجموعة أحكام نسبية تضع حدا لكل نزاع . ويزعم الذي يزعم أنه مظلوم على قبوله و يبقى دائما أحد الخصمين غاضبا ما لم يتم صلح بينه وبين خصمه يمتاز فيه كل ذرايين عن بعض حقوقه باختياره ولكن هذا يعد حلا على كل حال . وعندما عرضت ضرورة تطبيق هذه القاعدة على المجموعات كالأمم والطبقات والحيثيات المنظمة فشلت كل الوسائل في الوصول إلى الغاية . وكان آخر مثال للفشل الصارخ عصبية الأمم التي عرمت على تسوية الأمور الدولية بالتحكم وهو الطريقة القطرية للأفراد من قديم الزمان . وتعزى هزيمتها بحق لعدم القوة القاهرة التي تلزم كل فريق بقبول ما يقضى به . وهذا الإلزام هو الأداة الوحيدة التي أفادت في فض نزاعات الأفراد وكذلك الحروب الأهلية بين الأحزاب السياسية لا تحل إلا بالسلاح . وكذلك خصومات الطبقات كالعامل وأرباب رءوس الأموال وكذلك شكاة الفقراء لا يفصل فيها الفصل الأخير إلا الثورات الدموية وارتعاس السططان من أيدي المتحكمين ، وبالجملة لم يعد للعقل ولا الأخلاق ولا الحكمة ولا النخوة الانسانية أثر فعال في كبح جماح الطبيعة البشرية المتهبجة . فتكون كل الجهود التي بذلت في التمدن والتهديب والترويض قد ذهبت أدراج الرياح .

وقد علوا هذه النزعات العدائية بتيار المادية الحاراف الذى طفئ على العالم ووحده خونة وخيلاء ومناققين من الذين لبسوا ثوب العلم والفلسفة ينشئون له مبادئ ترشحه وتدعمه وتعززه وتزيكه، مع أن الواجب يقضى بفحصه والتقليل من اندفاعه وإقامة أسدود للعلولة بينه وبين إيذاء الإنسانية، وهامهم يعودون القهقري ويكتشفون خطاهم بل جرمهم ويندمون عليه ولكن بعد قوات الأوان ، فقد تهكوا على كل المقدسات وشككوا في كل الأسس النابتة وسهلوا للجهال والمرايين سحق الفضائل والروحيات ومحققها وكذبوا كل ما كان يمكن اتخاذه دعامة للفضل والحق والجمال ولعبوا بمقدرات الإنسانية لعب القيل الغشوم الأعمى بالأزهار الرقيقة في براعمها .

إن أصحاب الشرائع وحكماء العالم لم يكونوا جاهلين ولا بلهاء عندما ما بغضوا الشرور إلى الناس ووعدهم بخلود الروح وتوعدوهم بألوان العذاب في الدنيا والآخرة ترهيبا وتخويفا ، إنما فعلوا هذا وذلك ليحدوا من طبيعة الشر في الإنسان ويقالوا من عنجهيته وخيلائه ويقولوا من عبثه وعته واعتدائه لأنه بفطرته في غير حاجة إلى التحريض على الشر أو معونته على فتح أبواب الشر على مصراعيه فهو حيوان في أصله وبكوينه ونشأته وليس حيوانا وادعا ولا هادئا ولا قنوعا بل حيوان من الضواري والكواسر والجوارح، وهذا هو الأصل فيه والطارئ عليه هو إرغامه على التزام الهدوء والسكون والاعتدال والحد من شرسته وكسر شوكرته وإلجأه بالحديد لا تسليحه بالحديد والنار، وإجأه في كل ما ليس له وإغرائه بكل ما يؤدي إلى هلاكه .

لقد تكلموا عن التطور إلى الخير وإلى الملا وإلى الرقى الذى لا حده ولكن الأدلة قامت على نقيض ما ذهبوا إليه إلا في أمر واحد وهو تطوره حسبما تقتضيه حياته المادية فلو أن الإنسان لم يهين نفسه للتطور وفق الملابس والظروف التي يعيش فيها لا تقرض الجنس الإنساني من قديم فكان لا بد له أن يعد نفسه للشمس ولكل أنواع التغير والتبدل التي تحدث حوله ، وإلا ما استطاع أن يبقى نوعا قائما بذاته وأبست هذه الحاجة التي تصحبها القدرة سوى ما يلجأ إليه الحيوان لملاءمة الوسط، وهاهو الإنسان المفكر والعالم المتفكر والكاتب التحرير والمخطيب المفوه والمصحح قد وصلوا إلى مرحلة من أشق مراحل التفكير والتدبير، أيرضون أن يصبحوا رقاء كهبيد في الشرق والغرب يفعلون ما يؤمرون به ويمتنعون عما ينهون عنه، وليس مادتهم سوى اللصوص الذين يستغلونهم ويذلونهم باسم المجتمع والصالح العام وسير المدنية ، وما هي إلا أسماء أسموها لتسهل على هؤلاء السادة واللصوص الوصوليين التمكن من استعباد الكثرة الغالبة ؟ أم أن هؤلاء المفكرين سيئوآون مكاتهم المحتومة خداما للإنسانية وإسائذة للذنية أحرارا مكرمين لا يشاركون في نصب الحياثل التي أعدتها النفعيون ؟ . . . لن تستقيم الأمور في هذا الكوكب الذى نعيش على قشرته

إلا إذا أصبح لكل إنسان نصيب عادل من ثمرات هذه الأرض يشعره بأنه مساهم في خيراته ولا تستقيم الحياة وتقل وطأة المظالم إلا إذا ضمن للكافة مستوى منصف في التعليم والتغذية والصحة والكسب الحلال، ولو أن الجهود التي تبذل أيام السلم في استنزاف دماء الشعوب للإنتاج الزائد عن حدوده، وفي الحرب في التقتيل والتجريح والتخريب - لو أن هذه الجهود أو بعضها بذلت في التفكير والعمل لأمكن استغلال قوى الطبيعة كالبحار والأنهار ومنابع المياه والجبال وضوء الشمس وسائر القوى الطبيعية الكامنة والظاهرة وحبسها وتنظيمها لينتفع بها كل كائن ولو اقتضى الأمر رجوع الناس إلى العصر الفطري وهو الرقود في أحضان الطبيعة لضمان العمل والرزق بالزراعة الكثيفة والصناعات الضرورية والتوسع في إنارة الأدحان، فإنه لا يصدر تيار المادة إلا الاستمانة بالزهادة الرفيقة والتكشف النبيل لكبح جماح الشهوات والمطامع . أما الاندفاع فيما بدأه العالم منذ مائة ونحسين عاما سواء أكان في السياسة أو الاقتصاد فهلاك محقق وقضاء على الجنس كله بالتخريب والتدمير وحرمان الكثرة من حقوق تستأثر بها القلة ، ولا بد كذلك من الرجوع ولو في هواده إلى المعتقدات الدينية والارتكان إلى مبادئها السامية .

إن الحرب الطاحنة التي يكتوى العالم بناؤها للمرة الثانية خلال النصف الأول من هذا القرن إن هي إلا حكم نهائي بإفلاس المدنية وعجزها عن مداواة البشر ومعالجة أمراضهم وتقائصهم ، وعللة العلل في مدينة الغرب أنها تهالكت على المادة وأسرفت في عبادتها حتى سادت بين الأمم الغربية مبادئ الجشع والأنانية والظلم . وكان احساس مفكرى الغرب وفلاسفته بنقائص مدينتهم هذه واضحا منذ نهاية القرن الماضي وتلمسهم أسباب علاجها هو الذى أوحى لهم استنباط مبادئ وفلسفات اجتماعية جديدة أملوا أن يكون فيها براء عالمهم من المرض وخلاصه من سلطان المادة ومن هنا نبتت الاشتراكية والشيوعية والفاشيستية والاشتراكية الوطنية تحاول كل منها أن تهئ للناس الرخاء والراحة والسلام . وراحت هذه المبادئ تنازع الديمقراطية سلطانها القديم ولكن العلاج لم يثمر ولم يجنب المدينة الغربية مصيرها المحتوم إذ راحت المبادئ الجديدة تتضارب في قسوة وعنق تارة مع بعضها وطورا مع الأنظمة القديمة .

فعللة العلل ليست هي الأنظمة ولا وسائل الحكم ولا هي المبادئ الاجتماعية الجديدة بل هي غريزة الشر الكامنة في الإنسان .

إن خلاص العالم في رأي لن يكون إلا إذا خلصت الروح وانطلقت المبادئ السامية على حساب الفرائز الشريرة وراحت الأمم تهذب النفوس وترعى الفضائل التي ابتدعتها الأديان فالعودة إلى الدين وتقديس تعاليمه والعمل بروحه هو علاج العالم من أمراضه . ولست أقصد بالعودة إلى الدين أن نعود إلى التعصب الديني أو أن نرجع إلى سلطان رجال الدين كما بوشرف القرون الماضية ، وإنما الذى أرمى إليه روح الدين من حيث المساواة وتقديس الفضائل ما